مكتبة فلسطين للكتب المصورة

كتب قومية

القومية العربية و أحداث لبنان

بقلم

عدنان الحكيم

ورمضان لاوند

PAL JNSR

كتب قومية

القومية العربية..
وأحداث لبنان

بقلم
عدنان الحكيم ورضوان الأدنى

أولا :

القومية العربية

امام مسئولياتها التاريخية

بقلم

رمضان لاوند

رئيس تحرير جريدة صوت العروبة اللبنانية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

تجربة .. الجيل !

هذه تجربة . . .

إنها تجربة أقدمها إليكم ، لا لأننى أعتبرها كافية لتخطيط الطريق أمام الأجيال الجديدة . . . ولا لأننى أجد فيها منهجاً فلسفياً دقيقاً جديراً به أن يكون نموذجاً يستضاء به ، بل لأننى أعتبرها مجرد تجربة حية . عشتها وعانيت متاعبها ، كما عاشها وعانى متاعبها ألوف من أمثالى ممن هم فى نهاية العقد الرابع من عمرهم .

والتجربة فى مثل هذه السن هى تجربة متصلة بكل المشكلات التى تتيح لصاحبها إمكانية التعرف إلى ألوان من القلق والألم والحرمان والخوف ، ثم التصميم على مواجهة هذا كله بالصبر والإيمان .

إنها فى الحقيقة تجربة الجيل الذى عاش فترة من حياته متأثراً بطغيان الاستعمار ، منفعلا بأنواع من القيود الاقتصادية والاجتماعية

والسياسية . بحربة الجيل الذى واجه مأساة المعركة من أجل الاستقلال والتحرر ، بعد أن ورث عن آبائه الأقربين سلسلة من المواقف والقيم المتميزة بالانهزامية والاستسلام .

وإذا كانت لهذه التجربة قيمتها فلأنها كانت مناسبة تاريخية اجتمع فيها الشعور بالحرمان والقهر ثم الرغبة فى التغلب على أسباب هذا القهر وفى نفى عوامل ذلك الحرمان الذى ثقلت وطأته امتد أثره فكاد يلتهم الأعصاب ويحطم الإرادة .

والتجربة هذه لا يمكن أن يعانيها أولئك الذين ولدوا وفى أفواههم ملاعق من الذهب ، أو ولدوا وقد وجدوا أمامهم نظما اجتماعية وأوضاعاً اقتصادية ونفسية تكفيهم مؤونة الشعور بالخوف من الجوع أو الإحساس بضرورة الكدح من أجل الاحتفاظ بالحياة الكريمة أو شبه الكريمة ، أو على الأقل من أجل تجنب الموت جوعاً ومرضاً وضياعاً . .

ويبدو أن الفترات الكبرى فى تاريخ الشعوب العظيمة، لابد وأن تتصل بمرحلة الحرمان والضياع وأن تكون مصحوبة بالقلق المؤلم .

فليس من المصادفة مثلا ، أن يعانى الأنبياء صلوات الله عليهم ، وأن يواجه كبار المصلحين آلام هـــذا الضياع وذلك الحرمان حتى ولو كان أحدهم منتسباً إلى عائلة مترفة محظوظة . . فالثورات الروحية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الكبرى ، والتى تكون فى مستوى

إنسانية الإنسان ، لا تتميز بالإيجابية البناءة مالم تكن ممزوجة بالألم منصلة بالحرمان ..

إن سيدنا يوسف عليه السلام قد عانى آلام اليتم ، وتحمل أثقال العبودية والوحدة ، ثم السجن الظالم والتى امتحنه الله تعالى اسمه بها ، ثم أتاح له فرصة التغلب عليها وعلى كل ماقد تحدثه هذه الأحداث فى نفسه من المرارة واليأس والحقد ! ؟ ألم تكن مواقفه بعد ذلك ، وقد جاءته النبوة ، مواقف الإنسان الذى استطاع أن يكون فى مستوى الإحساس النبوى المنشود ؟

بل أليس الرسول عليه السلام محمد بن عبد الله العربى قد شعر منذ يفاعه بعزلته عن دنيا مكة ، وعن ترف العائلات الكبيرة فيها ، وعن سخف الوثنية ومباذلها ، وهو الذى ينتمى إلى أسرة من أوسط أسر مكة ؟ !

أوليس أنه ، وقد أمضه الشعور بالوحدة والحرمان ، غادر منزله الزوجى فى مكة ، وخلا إلى نفسه فى غار حراء يتطهر فيه بألم الوحدة ، حتى جاءه جبريل وبلغه رسالة ربه ، فخرج من الغار وهو يحمل على كتفيه حكاية الوحدة المؤلمة ، كما يحمل حكاية الإيمان بقدرة الإنسان على التغلب على هذه الوحدة المؤلمة بالذات ؟ !

وهل كان هرقل يقصد غير هذا المعنى حين وجه أسئلته المعروفة إلى رسول النبى عليه السلام الصحابى دحية الكلبى يوم جاءه إلى القدس مكلفاً بحمل الدعوة الإسلامية إليه من قبل الرسول محمد بن عبد الله ؟

ألم يسأله عن فصيلة الناس الذين يستجيبون لدعوة الإسلام الجديدة فقال له دحية : إنهم الفقراء . ثم عقب هرقل على جواب دحية وقال وهكذا الأنبياء لا يتبعهم إلا الفقراء !..

وأخيراً لنعد إلى غير الأنبياء : لنستشهد مثلا ببوذا أو « بدهمة » كما يقول أتباع الدين البوذى . ألم يتنازل بدهمة هذا عن ترف الملك ونعيم القصور ثم عاش فى صميم الألم والحرمان اللذين اختارهما لنفسه قبل أن يخرج إلى الناس بتعاليمه الجديدة ؟ !

إن قصة الحرمان والألم هى قصة كل ثورة ، وهى التمهيد الطبيعى لكل انتفاضة صحيحة هادفة إلى صنع تاريخ جديد ، بمحرض جديد ، وبقوة نابعة من أعماق الجماهير . .

وما هو شعبنا العربى اليوم ؟

ما قصة كفاحه من أجل الحياة الكريمة ؟ ومن أجل الشعور بأنه فى حمى القانون ؟ وأن كل شئ فى مجتمعه يعمل فى سبيل تأمين هذه الحماية له ؟

أليس أن الكثرة الساحقة من أبناء هذا الشعب العربى قد واجهت من أنواع الكبت فنوناً وألوانا ؟

أليس أن الملايين من هؤلاء الأبناء قد ولدت فى الألم ، وحبت فوق طريق الألم ، وتغذت بغذاء الألم ، والتهمت أعصاب أفرادها مشاعر القلق والخوف من الضياع ، والحاجـــة الملحة إلى الحماية المـادية والمعنوية ؟

وماذا كانت نهاية هذه المأساة ؟

هل كانت شعوراً بالعدمية ، أو احساساً باليأس من الانتصار على العقبات والعراقيل؟ هل كانت الاستسلام والانهزامية ؟ أم كانت ذوبانا واحتراقاً بنار الشهوات عند القلة المترفة التى ولد أفرادها وفى أفواههم ملاعق من الذهب ؟

لا . .

لقد كانت نتيجة هذا الحرمان،ثورة لا حقداً .. وإيمانا لا إلحاداً.. وتصميما على البناء لا رغبة فى التخريب ... وثقة بالانسان لا كفراً به .

هذه الثورة هى التى يقدمها إلينا التيار القومى العربى الحديث . . . ثورة صنعها الحرمان الذى بلوره الايمان . . . ثورة بيضاء . مهمتها البحث عن الحقيقة التى كانت وما تزال فى أعماق الشعوب الحية ، نداء إلى العمل ، وتحريضاً على الجد ، وتحدياً لكل ما يواجه الانسان من الصعوبات والعراقيل .

بهذا المعنى أقدم ملاحظاتى هذه . وفى ضوء تلك المواقف النفسية أضع تجربتى بين أيديكم ...

نعم ، إن فى حياة الانسان ، أى إنسان ، سؤالا ثابتاً لا يتغير ولا يتبدل . ويتلخص هذا السؤال فى العبارة التالية : « أين هى الحقيقة ؟ » .

نعم أين هى الحقيقة ؟

هل هى فى هذه الطبيعة التى تمتد من قدامنا ومن ورائنا وعن يميننا ويسارنا ؟

هل هى فى جملة الكواكب والمجرات الضخمة التى تمتد وتسبح فى أفلاكها عبر فضاء لا يكاد خيال الانسان أن يسعه ؟

أم هى فى الذريرات الصغيرة التى بدت لنا فى تركيبها الذريرى على صورة الكواكب والعوالم العملاقة الرهيبة ؟

هذا النظام العجيب الذى يحيط بنا من كل جانب أين هى الحقيقة منه ؟ أو أين هو من هذه الحقيقة ؟

ويبدأ الانسان محاولاته منذ فجر وعيه فى التاريخ أو قبل التاريخ ليضع يده على هذه الحقيقة المتلفحة بالأغطية والأستار ..

ولكن مأساة الانسان التى استهلكت حتى اليوم كل نشاطه المادى والنفسى ؛ هى أنه لم يستطع التعرف إلى هذه الحقيقة إلا فى فترات قصيرة جداً ، وعلى نور يعجز العقل بوسائله التكنيكية أن يسجلها به ، فيما يتركه وراءه من المخطوطات والآثار العمرانية .

هذه الحقيقة كانت دائماً وأبداً أشبه بوميض البرق فى الليلة الحالكة السواد ،لا نجم فيها ولا قمر . وبهذا الوميض تتخطط طريق الانسان لفترة معينة . وتتحدد معالم الدنيا أمامه ثم يبقى هذا بالنسبة إليه زاداً يتزود به فى قطع الطريق إلى المستقبل وفى صنع تجاربه التى يطلق عليها المتأخرون من الكتاب والمفكرين لكل أمة من الأمم اسم « التراث القولى » .

والواقع أنه قد كانت لكل شعب من شعوب العالم المتحضر ،

ولا سيما شعوب المنطقة المتصلة بالبحر المتوسط ، تجربته أو تجاربه القومية التي يصنعها عبر مئات أو ألوف من السنين في ضوء هذا الوميض الذي ينبجس في الظلمة الحالكة ، ويجدد إيمان الانسان بنفسه ويحرضه على متابعة كفاحه من أجل القيم المعروفة من خير وحق وعدالة وجمال.

وينطلق كل حزب فرحاً بما لديه ؛ معلنا على طريقة ارخميدس ، أنه قد وجد ضالته . . . ولكن الأيام تمر والقرون تمضي ثم لا يجد الانسان نفسه إلا أمام عثرة تتلوها عثرة ، وأمام لغز يتلوه لغز . .

ومع ذلك فإن في أعماق هذا الانسان الذي عانى آلام التجربة القومية وقلقها وواجه مسئولياتها الخلاقة المبدعة ، إن في أعماق هذا الانسان شيئاً يهبه القدرة على الاستمرار في الكفاح ، وعلى ترقب هذا الوميض الذي ظهر له في فترة قصيرة عابرة .

إنه يترقبه وفي صميم نفسه شعور بالاعتزاز كبير .. إنه الاعتزاز بتراثه ، بكونه منتسباً إلى أمة لعبت دورها القيادي في فترة من فترات التاريخ . وفي أن هذا التراث سيكون مرة أخرى نقطة انطلاق لتحقيق تجربة مقبلة جديدة ، ستكون هي بدورها تراثاً للأحفاد من بعده به يستضيئون . وعلى هديه يتابعون معاناة الكفاح المسئول الذي بدأه أجدادهم من قبل .

أليست تجربة الفراعنة القدماء محاولة لاكتشاف الحقيقة ، والتي تركوها من بعدهم مسجلة في قبورهم ، وفي أوراق البردي ، وفي هياكلهم؟

وإذا كانت تجربة الفراعنة متصلة بالأسطورة ، نابعة من حيرة

الانسان أمام غوامض الوجود ومجاهله ، فان تجربة اليونانيين من بعدهم قد اعتمدت منهجية مختلفة تتصل بمحاولة التعرف إلى العلاقات الثابتة والقائمة بين جزئيات الطبيعة . .

وإذا كان الفراعنة قد توهموا الطريق إلى الحقيقة فى عالم الموت ، وكان همهم الملح هوالاستعداد لمواجهة هذا العالم والتعرف على أسراره ثم استغلال قوى الطبيعة فى خدمته ، وإذا كان اليونانيون ابتداء من طاليس ، أقدم فلاسفتهم الطبيعيين ، حتى أرسطو ، ومن بعدهم هذا اقليطس وسقراط وأفلاطون وغيرهم من رواد المعرفة والفلسفة ، قد توهموا الطريق إلى الحقيقة فى عناصر الطبيعة ومقاييس العقل ، فان هناك تجارب لشعوب وأمم قد وضعت لنفسها معادلات وأخلاطاً ليست فرعونية ولا يونانية . .

وكل ماتركه هؤلاء وأولئك من كتابات وآثار وما سجلوه من مواقف ونوازع هو جملة المحاولات التى قام بها الانسان من أجل البحث عن الحقيقة .

ليس المهم أن نعرف هذه الحقيقة المطلقة بالذات ، والتى يشعر الانسان أمامها بتفاهة وسائله كلما حاول أن يواجهها أو صمم على أن يقتحم المجاهل التى تفصله عنها .. ليس المهم أن نشعر بأننا قد وصلنا ، وإن لم تعد وراء معرفتنا معرفة ، ووراء قوتنا قوة ، ووراء الطريق التى اجتزناها طرق أخرى ، ولكن المهم هو أن نحتفظ بالطاقة التى تحرضنا على الكفاح المستمر من أجل الاتصال بهذه الحقيقة ، أن يكون إيماننا

بها إيماناً ملتهباً بالعزيمة ، مستضيئاً بالتصميم ، أن يكون المحتوى الذى تتميز به أمتنا وتتحرك به ، وتستشف من خلاله أبعاد المستقبل .

المهم هو أن نبنى وأن نفكر باستمرار . أن نسيطر على كل العقبات وأن نزيل كل العراقيل ... وأن تكون حياتنا سلسلة من عمليات الخلق ومحاولات التحدى لكل مايواجهنا من الوقائع والأحداث ..

أن نشعر بأننا لم نتعب بعد التعب الكافى . ولم نسع السعى المطلوب ولم ننته من تمثيل دور الرائد أمام نفسه وأمام غيره . .

وماذا فى تاريخ الشعوب الناجحة والحية غير هذه الظاهرة . .

أليست كل المكاسب العلمية والمنجزات المادية والتحقيقات النظرية ثمرة من ثمرات هذا التصميم الخاص على معاناة المزيد من التعب والمزيد من السعى والمزيد من الريادة بفرح وحماسة ؟ .

أليست التكنيكية الحديثة فى مختلف الحقول وعلى مختلف المستويات فى الفيزياء والكيمياء والطب والقانون والسياسة والاجتماع وغيرها هى الثمرة الطبيعية لتوقفنا العميق نحو الحقيقة المنشودة ؟

وماذا يهمنا إن لم نجد هذه الحقيقة بعد؟ ولكن المهم هو ألا نيأس من وجدانها وألا نكون ضحية لتشاؤم عقيم وبروده وتفتت الارادة

، د يمان الخصب الغنى ، والارادة التى تعمل فى ضوء هذا الايمان ، هما أقنوما المعرفة وركيزتاها فى حياة كل أمة . .

وفى صميم المعركة التى نخوضها فى ميدان المعرفة تبدد لنا المحاولات الكبرى التى سجلناها فى معركتنا هذه ، وكأنها نماذج أصيلة لثورية شاملة تستيقظ بها كل قوانا وتتحرك بها كل إمكانياتنا مستهدفة هدفاً واحداً لايكاد يتغير أو يتبدل .

هذا الهدف هو اقتحام المجهول والاتحاد باللانهاية التى يرمى اليها هذا المجهول نفسه ثم نقلها إلى الوعى الانسانى .

وتاريخ الإنسان الذى هو تاريخ الحضارات هو سلسلة تلك المحاولات الكبرى لاقتحام المجهول للاتحاد باللانهاية .

ومن الطبيعى أن تسجل كل محاولة من هذه المحاولات مرحلة جزر بعد مد ويأس بعد أمل وتراجع بعد تقدم وشك بعد يقين وإيمان وتشاؤم بعد تفاؤل .

ولو رغبنا فى أن نعرف الحضارة ، أية حضارة فى تاريخ الإنسان لما وجدنا فى بدايتها ونهايتها ، أى عند طرفيها غير المعانى النفسية والأخلاقية التى وردت فى الفقرة السابقة . .

وكلما كانت ثورية المحاولة أعمق جذوراً وأشمل وعياً لمقاصد الإنسان وأغراضه ، كانت الحضارة التى هى ثمرتها الطبيعية أصدق فى تصوير التجارب التى سجلها الإنسان لغرض اكتشاف المجهول فى بساطته المطلقة واللانهائية الرائعة .

يبقى أن أتساءل عما إذا كانت قضية العرب اليوم هى قضية هذه المحاولة الثورية التى أشرت إليها

فهل القومية العربية التى تتردداً صداؤها فى الميدان السياسى وتتجسم طاقاتها فى ترق مستمر إلى تنمية القوى الاقتصادية وتحرير الإنسان العربى من قيوده الاجتماعية وتطوير القيم الفكرية والاعتقادية والمقاييس الأخلاقية التى تتصل بها ، هل القومية العربية هذه هى مرادف الثورية الحضارية التى عرفتها الأمم القائدة فى التاريخ والتى لعبت وتلعب دوراً قيادياً فى مستوى عالمى شامل ، أم أن القومية العربية هى مجرد نداء عاطفى يستهدف الاستقلال السياسى وحسب ، أو تحقيق وحدة سياسية فى نطاق الوطن العربى فقط . هذا الوطن الذى درجنا على تحديده ابتداء من شواطىء الأطلسى فى شمالى غربى إفريقيا وانتهاء بالخليج العربى فى شرقى الجزيرة العربية ؟

وقبل أن أجيب عن هذه التساؤلات يهمنى أن أتناول عنوان هذا الحديث بالتفصيل والتحليل . .

فالعنوان ينقسم إلى قسمين رئيسيين : القومية العربية ثم المسئوليات التاريخية التى تواجهها .

القومية العربية

فى رأيى أن القومية العربية ليست مذهباً فكرياً معيناً . وليست فلسفة خاصة مما تمتلىء به جعبة التاريخ وتتحرك به وفيه طاقات الإنسان العقلية .

إن القومية العربية نداء من الأعماق . انها تعبير عن ثورية الأمة وحسب بل محاولة تقصد بها الأمة أن تكون هى هى . أى أن تكون نفسها وأن تعيش همومها وأن تتحرك فيها أصالتها فى غير تبعية أو شعور بالتبعية .

وبعبارة أخرى ، تبدو لى القومية العربية ثورة على كل ما يتصل بالأمر الواقع . لا للكف بكل معانى هذا الأمر الواقع نفسه بل لإعادة النظر فى محتوياته ونفى ما يجب أن ينفى منه واستبقاء ما يجب أن يستبقى منه أيضاً . . المهم أن يصبح هذا الأمر الواقع ثمرة لحركية الابداع والترقى إلى الخلق المستمر والاحساس بجمال المغامرة التى تتحقق معانيها فى اقتحام مستمر للمجهول . .

وإذن فالقومية العربية ليست أن تكف الأمة بتراثها التاريخى وبثرواتها التى تركت لها من الماضى ولكنها أن تتحقق الأمة من أن هذا التراث هو جوهرها الأصيل ليكون منطلقاً صالحاً لاصالة المستقبل المنتظر لثوريته المبدعة الخلاقة .

القومية العربية ثورة على الروتين ، وتحرر من الرتابة ، ومقاومة ومقاومة للتقليد الغبى ، وشوق مستمر إلى الجديد من المعرفة . وإرادة يكون بها ما نريد ، حقيقتنا نحن ، وتجربتنا نحن ، لا حقيقة سوانا وتجربته .

المسئوليات التاريخية

فإذا وضحت القومية العربية بهذا التعريف . وظهرت لنا ثوريتها المنهجية ، فمن الطبيعى أن ننتقل إلى الجزء الآخر من عنوان الحديث والذى هو « المسئوليات التاريخية » .

فما معنى هذه المسئوليات التاريخية .

المسئوليات هى وعى معين لقضية معينة بسبيل تحقيق غرض معين فهى إذن فكر من ناحية وحس أخلاقى من ناحية أخرى :

أما أنها فكر فلأنها تتصل بالوعى أى بالمعرفة . وأما أنها حس أخلاقى فلأنها تستهدف غرضاً معيناً ذا قيمة انسانية خاصة تميزها من غيرها من القيم ...

والتاريخ الإنسانى هو ثمرة طبيعية للمعرفة ذات القيمة الأخلاقية المعينة . هذه القيمة التى تميز الشر من الخير والقبح من الجمال والظلم من العدل والخطأ من الصواب .

ينتج عن ذلك أن الانتفضات التى سجلها الإنسان منذ ظهر على سطح هذه الأرض لا يمكن أن تكون تاريخاً بالمعنى الصحيح للكلمة ما لم تتصل بمعرفة واعية معينة ذات قيمة أخلاقية معينة .

وفى ضوء هذا التعريف لا يمكن أن يكون للقبائل البدائية ، فى بعض الجزر الأندنوسية أو فى أواسط أفريقيا تاريخ . لأن سلسلة

نشاطات، هذه القبائل سلسلة فائدة للوعى من ناحية وللغرض الأخلاقى الايجابى من ناحية أخرى .

ولا يرد علينا ما يروجه البعض من المغرمين بدراسة تاريخ هذه القبائل من أن لها حضارة وأن لها تاريخاً ...

فالملاحظ أن المرحلة الاجتماعية والفكرية التى تعيش فيها هذه القبائل اليوم هى تلك التى كان يعيش فيها أجدادها الأولون منذ ألوف السنين .

فهى لم تسجل فى تاريخها الطويل أية محاولة جدية لمجاوزة الحدود التى تفرضها مطالب الغريزة الجماعية أو الفردية العمياء . ومادام أنها كذلك فهى لا يمكن أن تكون ذات تاريخ ايجابى مسئول .

والتاريخ المسئول يتصل بالايمان والعقيدة . الايمان الذى لا تحده المقاييس التى درجنا عليها والتى نتوسلها فى تعيين الأبعاد المادية . إنه الإيمان الذى هو فى حقيقته شوق مستمر إلى المزيد من المعرفة وتوق دائم إلى اقتحام المجهول .

ولعل القرآن الكريم قد قصد إلى هذا المعنى حين اعتبر الإيمان أمانة: وأن الإيمان مسئولية ضخمة يتميز بها الإنسان ويواجهها على أن يكون هذا الإنسان ذا تاريخ مسئول عندما قال سبحانه وتعالى : «إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا » . ظلوما لنفسه جهولا لما يترتب على حمل هذه الأمانة من المسئوليات الفكرية والأخلاقية .

المسئوليات التاريخية أمام القومية العربية :

وبعد أن اتضح ما أقصده من عبارة « المسئوليات التاريخية » ، ومن عبارة « القومية العربية » ، يهمنى أن أعين العلاقة القـــائمة بين هاتين العبارتين .

وبتعبير آخر يهمنى أن أعين الحدود والأبعاد التى تبدو لى حين تتردد فى ذهنى هاتان العبارتان مجتمعتين : « القومية العربية » ، أمام مسئولياتها التاريخية » .

أول ما يتبادر إلى الذهن . وفى ضوء التعريفات التى سجلتها فى بداية هذا البحث ، هو أن القومية العربية تعبير ثورى عن إرادة الأمة فى المستوى الأخلاقى الهادف الذى يصنع تاريخ هذه الأمة بالذات .

وإذن فالقومية العربية ليست حركة سياسية ذات أغراض توحيدية وحسب . وليست منهجية اقتصادية اجتماعية فكرية وحسب . بل هى شىء فوق هذا وذاك . إنها معنى حضارى جديد . أى أنها محاولة جديدة لصنع تاريخ جديد غايته تقديم حلول جديدة فى مستوى قيادى يتصل بالإنسان فى كل مكان لافى بيئة معينة .

حدود هذه الثورية القومية ليست فى أرض معينة ولا لشعب معين وإن كانت تتصل فى مصادرها مكانياً بأمة معينة ولكنها فى أغراضها تتصل بالإنسان المجرد ، ومن هنا تنتفى فكرة الانطوائية فيها . وأن تكون همومها هموماً للمواطنين العرب وحسب وإن كان حملتها وبناتها هم أبناء الأمة العربية .

وإذن فانتفاضة القومية العربية هى انتفاضة حضارية ، تقف جنب إلى جنب فى مستوى الحضارات الكبرى التى ظهرت فى التاريخ الإنسانى حتى اليوم ...

ومن الطبيعى أن يفرض على هذا التعريف أن أتحدث عن التصنيف الحضارى الذى تتميز به الخطوط العامة للانتفاضات الحضارية المختلفة وعن دور القومية العربية وقيمتها فى هذا التصنيف المذكور .

لقد تأرجح عدد الحضارات فى رأى فلاسفتها ومؤرخيها . فهو تارة دون العشرة وهو تارة أخرى فوق العشرين .

أما شبينجلر فيصل بالعدد إلى ثمانية وأما توينبى فيرتفع به كثيراً حتى يجاوز العشرين . ولكل من هؤلاء المؤرخين الفلاسفة وجهة نظره الخاصة فى تعيين العدد الذى يراه .

ويبدو لى أن المشكلة الكبرى التى واجهوها فى دراستهم للحضارات وطريقة تصنيفها هى مشكلة القواعد أو القاعدة العامة التى يجعلون منها مقياساً يقيسون به هذه الحضارات ويصنفونها فى ضوئه .. والمشكلة هذه هى مشكلة تتصل بالمنهج الصحيح الذى يجب أن يستعان به لتمحيص الحقائق التاريخية وبما أن الحقائق التاريخية هى جانب من النشاط الانسانى وبما أن النشاط الانسانى لا يخضع حتى اليوم خضوعا دقيقاً لمناهج البحث العلمى فمن الطبيعى جداً أن يكون موضوع الحضارات فى التاريخ، عصياً على المناهج العلمية المدونة حتى اليوم .

هذه المشكلة نجدها فى علم الاجتماع وعلم النفس بل فى علم الاقتصاد نفسه كما نجدها فى علم التاريخ .

ولهذا السبب كانت آراء مؤرخي الحضارات وفلاسفتها داخلة إلى حد بعيد في نطاق حساب الاحتمالات وبالتالي في نطاق الظن والتخمين.

وفي ضوء هذا التقدير لأهمية هذا النوع من الدراسات يحسن بي أن أقتصد في تعيين عدد الحضارات الكبرى والشاملة وأن نضم هذه الحضارات في نطاق الخطوط العامة التي تجمع شملها وتبدو كالقاسم المشترك لعدد معين من وحداتها الكثيرة.

فالحضارة اليونانية اللاتينية مثلا تضم نشاط أمتين كبيرتين لعبتا دوراً إيجابياً في قيادة العالم وفي طبعه بطابعها الخاص. هاتان الأمتان هما الأمة اليونانية والأمة اللاتينية الرومانية.

فإذا تركنا الفترة من التاريخ التي ظهرت فيها معالم النشاط لهاتين الأمتين، وقفزنا عبر القرون، لوجدنا معالم هذا النشاط الخاص مجسمة متحركة حية في عدد أكبر من الأمم والشعوب التي تعتبر الوريثة الطبيعية لعقلية وطابع هاتين الأمتين بالذات. هذه الأمم هي التي صنعت ما نطلق عليه اليوم اسم الحضارة الغربية. وهي تضم شعوب أوروبا وأمريكا بما في ذلك الاتحاد السوفيتي نفسه.

وفي مجموعة هذه الشعوب طابع مشترك هو الطابع اليوناني اللاتيني مع وجود طوابع محلية تفرضها عوامل جغرافية وسياسية واقتصادية معينة. ولكن الطابع اليوناني اللاتيني هو الطابع الرئيسي لمجموعة هذه الأمم والشعوب.

وفى ضوء هذا التعريف لا يسعنا أن نعتبر الصراع بين الشيوعية والرأسمالية صراعاً بين حضارتين متعارضتين ولكنه صراع فى الحضارة الواحدة نفسها وصورة للتخاض الداخلى الذى تفرضه طبيعة التناقضات التى تتكون منها كل ظاهرة انسانية فى العالم .

اذن فالشيوعية والرأسمالية ظاهرتان متناقضتان لواقع حضارى واحد تعتمد كل منهما على منهجية هذه الحضارة وتتنافسان فى التوكيد على أمانة كل منهما لهذه المنهجية ، ونجاحها فى العمل بها والتحرك فى ضوئها .

هذا التحليل يصدق على كل الحضارات الأخرى التى يضمها طابع واحد مشترك .

فإذا كان بعض المفكرين قد أطلق على الحضارة الغربية ، التى هى بعث جديد للحضارة اليونانية اللاتينية القديمة ، اسم حضارة الثقافة ، وإذا كان البعض الآخر قد أطلق على الحضارة الشرقية التى تضم الهند والصين وبقية شعوب الشرق الأقصى اسم حضارة الخلاص، فإننى أطلق على الشخصية الحضارية التى ظهرت فى تاريخ الأمة العربية . اسم حضارة الإنسان

والفارق بين حضارة الإنسان التى هى حضارة العرب أو القومية العربية وبين الحضارتين الأخريين ، هو أن حضارة الانسان قد بدت بكامل أصالتها فى أمة واحدة هى الأمة العربية . بينما توزعت نشاطات الحضارتين الأوليين فى مجموعة من الأمم والشعوب .

أخلص من هذا التمهيد إلى تقرير الملاحظات التالية :

١ — إن حضارة الانسان هى حضارة الأمة العربية والتى تمثلت فى انتفاضة الشخصية العربية فى الماضى وواجهت العالم برسالة روحية معينة وأسلوب معين فى التفكير وفى تصنيف القيم الأخلاقية . وكان غرضها دائماً هو تكريس الواقع الانسانى الذى هو ثمرة التناقض المستمر بين الحرية والحتمية ، وبين الروحية والمادية أو بين الخلاص والثقافة .

حضارة الإنسان هى الحضارة التى يستهدف الاحتفاظ بالانسان فى مستوى انسانيته فلا تحيله إلى مجموعة علاقات مادية ثابتة أو إلى قوانين علمية لكى لا يبدو منه غير حتمية المادة . كما لا تحيله إلى طاقة روحية وحسب مستهدفة تجاهل واقعه المادى ومحاولة أن تجعل منه قيمة مطلقة وحسب .

٢ — إن حضارة الثقافة التى هى حضارة الشعوب الناشطة فى أوروبا وأمريكا والتى تتمثل اليوم فى التناقضات القائمة بين موسكو وواشنطن ، هذه الحضارة هى التى تصر على اخضاع النشاط الانسانى لحتمية القانون والعلاقات المادية الثابتة .

وهذا هو السر فى ظهور مايسمى بالفلسفة العلمية التى تتألف فى الحقيقة من تناقضين لاسبيل إلى دمجهما .

« الفلسفة التى هى تفسير نهائى للوجود . والعلم الذى هو تسجيل محض للعلاقات التى تبدو ثابتة بين جزئيات الطبيعة » .

الفلسفة حديث فى المطلق واللانهائى . والعلم تصنيف للنهائى المتحرك ذى الأبعاد المحدودة والمقاييس المعينة . وإصرار الماركسية مثلا على اعتبار الفلسفة شيئاً نابعاً من واقع الملاحظات العلمية وحسب هو إصرار على تكريس الحالة وعلى قبول المتناقضات .

إن حضارة الثقافة هى الحضارة التى تعبر على مواجهة الانسان فى ضوء قوانين الفيزياء والكهرباء والكيمياء التى يوضع لها فى كل فترة من التاريخ مبدأ تفسيرى معين . ولعل التناقض الذى وقع فيه كل من لافوازييه فى الماضى وانيشتين فى الحاضر خير دلالة على تصوير الازدواجية المتناقضة فى حضارة الثقافة الغربية . كان لافوازييه يقول : لاشئ يخلق . . . لاشىء يفنى . . . كل شئ يتحول ؛ فإذا بعلماء الذرة المحدثين يقولون : لاشئ يخلق . . . كل شئ يفنى ويبيد .

٣ ــ إن حضارة الخلاص ، التى هى حضارة الشعوب الشرقية . هى الحضارة التى تصر على اعتبار الانسان فى حقيقته طاقة روحية اخلاقية وحسب .

هذا الانسان هو الذى نجده فى طبيعة العقائد والتقاليد الفكرية والروحية التى تتحرك وتنشط فى صميم نفسيات تلك الشعوب .

وقد يجد البعض فى انتقال التكنيك الحديث إلى هذه الشعوب بعد ظهور ثوراتها القومية شيئاً يتعارض مع التعريف الذى نصفه لشخصيتها الحضارية .

وبما أن التجربة الحديثة لم تبلغ مداها بعد . وبما أن التكنيك الحديث

لم يزلزل حتى اليوم ركائز القصائد القومية الموروثة حتى فى الصين الشعبية أو شبه القارة الهندية . فإن العودة إلى التجارب الماضية جديرة بتسليط النور على طبيعة الشخصية الحضارية الشرقية .

لقد عجزت التجربة اليونانية اللاتينية القديمة عن اخراج الهند من شخصيتها الحضارية الأصيلة رغم التيارات القوية التى صنعتها يومذاك كما عجزت التجربة العربية الاسلامية عن تحقيق الغرض نفسه رغم المكاسب الروحية والتشريعية التى حققتها خلال القرون الوسطى .

الايجابية فى حضارة العرب :

يبقى أن أقرر ملاحظة أخرى أصنف بها الدور القيادى لهذا الثلاثى الحضارى .

لقد أثبتت كل من حضارة الثقافة فى الغرب وحضارة الانسان فى الوطن العربى عن ايجابيتها فى تمثيل دور قيادى على مستوى عالمى . بينما عجزت حضارة الخلاص فى الشرق عن تمثيل هذا الدور الايجابى خلال أو بعد الانتفاضات التى ظهرت فى العصور الذهبية لهذا الجزء من العالم .

والواقع أن هذه الانتفاضات قد كانت دائماً ذات طابع سلبى فى مختلف الظروف التاريخية . هذا مانجده فى الغزو الذى قام به أتيلا فى القرن الرابع الميلادى .

واجتاح به الحضارة اليونانية اللاتينية أو ما بقى منها ثم تفتتت صفوف الغزاة دون أن تكون فى مستوى الوعى الحضارى لروما القديمة ، عاجزة عن منح هذا التراث القدرة على الاستمرار والتجدد وعلى ممارسة مسئولية الواعية أمام التاريخ .

ثم تجددت هذه الانتفاضة فى سلسلة من عمليات الغزو العسكرى الواسع فى أشخاص توغاميتش فى جنوب روسيا ، وفى بايازيد فى آسيا الصغرى ، وفى هولاكو وجنكيزخان وتيمورلنك فى الشرق الأوسط . وتيمورلنك هو الذى وجه طلق الرحمة إلى كل بقايا التراث العربى ثم تفتتت قواه وضاعت طاقته عند حدود القطر المصرى ؛ ثم لم يترك وراءه غير الفراغ والخراب . وكان ظهور الحكم التركى بعد ذلك إيذاناً بتكريس عصر الانحلال فى هذه المنطقة من العالم .

إذن فالإيجابية التى هى فى المستوى القيادى الانسانى المطلوب لا تتمثل فى رأيى إلا فى حضارتى البحر المتوسط والمتمثلتين فى الصراع التاريخى بين العقلانية اليونانية اللاتينية أو عقلانية الثقافة وبين إنسانية الحضارة العربية .

وقد تكون لهذه الظاهرة الحضارية الخاصة أسبابها الجغرافية والاقتصادية أو عوامل أخرى ما تزال غائبة عن وعى المؤرخين . ولكن الشئ الذى لا سبيل إلى تجاهله هو أن تصوير هذه الوقائع هو تصوير يتصل بالتاريخ الحقيقى لانتفاضات الانسان فى هذه المنطقة من العالم .

وقد حاولت أن أعطى لهذه الظاهرة تفسيراً معيناً . فما وجدت

غير التسليم بوجود غريزة للتاريخ ولعلها فى منطق الفرد الواحد أن تكون كالغرائز الأساسية فى صميم تكوينه ، هذه الغرائز التى لخصها فرويد فى آخر ما كتبه ، والذى نقله إلى العربية الدكتور عثمان نجاتى ، فى غريزتين اثنتين هما غريزة الحياة وغريزة الموت .

المهم أن دور السلبية الحضارية فى الشرق هو توجيه طاق الرحمة إلى إحدى الحضارتين الإيجابيتين التى تقترب من نهايتها لتتيح للحضارة الأخرى امكانية النمو وهى تستعد متعثرة لحمل مشعل القيادة فيما يقبل من الأيام .

هكذا كان دور أتيلا الذى وجه طاق الرحمة إلى حضارة روما المثقبة لكى يتيح الفرصة للحضارة العربية بأن تواجه مسئوليات القيادة والإشراف على مقدرات العالم وهى آمنة على نفسها من خطر أى تهديد قد يأتيها من الخارج .

وهكذا كان دور كل من هولاكو وجنكيزخان وتيمورلنك وتوغامتش وبايازيد بالنسبة إلى الحضارة العربية الإسلامية بعد أن عانت هى نفسها المتاعب الكثيرة من جراء تناقضاتها الداخلية التى هددت وحدتها الخاصة . وبفضل عمليات الغزو التى قام بها هؤلاء العسكريون والتخريبات التى أحدثوها فى صميم الوجود العربى الإسلامى استطاعت أوروبا ذات الحضارة الطفلة والمتعثرة آنذاك أن تجد الطريق ممهدة أمامها لمواجهة مسئولياتها القيادية على مستوى عالمى وللاستغلال بمقررات الانسان بعد ذلك .

فى ضوء هذا التصنيف وعلى هدى من الأدوار التى يقوم بها الثلاثى الحضارى ، وبعد المتناقضات الهائلة التى يشتد تصارع عناصرها اليوم فى صميم الحضارة الغربية ؛ ولا سيما فى المعسكرين الشيوعى والرأسمالى؛ بل فى صميم كل معسكر منهما على حدة ، لا يسعنى إلا أن أعلن بأن التاريخ يعيد سيرته الأولى ، وأن القومية العربية اليوم تستعد لمواجهة مسئولياتها التاريخية بعد أن يبلغ الصراع بين هذه المتناقضات نهايته الطبيعية وتفقد الحضارة الغربية وحدتها بصورة نهائية فيصبح بأس الشيوعيين والرأسماليين بينهم شديداً بحيث يفقد الجميع حسن الوحدة وحسن الشعور بالدفاع المشترك عن الوجود .

والمسئوليات التاريخية للقومية العربية ليست بالطبع كما تعرفون ، وكما قررت فى غير مكان واحد من هذا البحث ، فى مستوى الشىء السياسى وحسب ولافى مستوى البناء الاقتصادى والتطوير الاجتماعى فقط ، بل هى فى مستوى القيادة الحضارية ...

وفى ضوء هذا كله نستطيع أن نكتشف المحرضات الكبرى التى تحفز الاستعمار الغربى مثلا على مقاومة التيارات التجارية فى مختلف الأقطار العربية بعناد وحزم وتصميم وفى حدود ظروف كل فريق من فرقائه وعلاقاته الدولية .

وفى هذا الضوء نفسه نتعرف إلى هستيرية العدوان الإنكليزى الفرنسى الإسرائيلى على قناة السويس عام ١٩٥٦ ، ثم إلى الحصار الاقتصادى الذى ضربته بالإضافة إلى بريطانيا وفرنسا دولة الولايات المتحدة نفسها عملا بخطط وزير خارجيتها السابق السيد دالاس .

أما موقف فرنسا من الجزائر وإصرارها على مقاومة أحرار هذا البلد العربي المكافح بقسوة لم يعرفها التاريخ إلا عند الغزاة المخربين من مثل أولئك الذين عددنا أسماءهم قبـــل ذلك بقليل . وأما تآمر المعسكرين الشيوعي والرأسمالي على العرب في الاعتراف بالأسفين الإسرائيلي وتعاونهما مع الأقليات في الوطن العربي كله هو تحريضهما لهذه الأقليات على العصيان وتزويدهما لها بما تحتاج إليه من التأييد المعنوي والمادي ، ثم تحالفهما مع الرجعية والرأسمالية الفردية اللتين هما الحليفتان الطبيعيتان لعناصر التفتيت في الوطن العربي كله ، إن هذا كله هو تكملة للحلقات الاستعمارية المضروبة على القومية العربية الجديدة .

وهذا هو السر فيما سمعته من تعليق أحد المحاضرين في معهـــد الدراسات الشرقية التابع لجامعة السوربون في باريس عام ١٩٥٢ . لقد قال هذا المحاضر تعقيباً على محاضرة لي ألقيتها قبيله أمام التحقيق وناقشت بها جانباً من جوانب الشخصية العربية . قال ما خلاصته :

« في حياتنا نحن الغربيين ظاهرة لا تتفق مع الواقع الحقيقي للأشياء . فنحن نتخيل بأن الشيوعية خطر على مقاومات حضارتنا الغربية . ونحن نحاول أن نقاوم الشيوعية في ضوء هذا الاعتقاد

والحقيقة أن الشيوعية ليست خطراً على حضارتنا . إنها على العكس من ذلك ثمرة طبيعية لتطورنا الاقتصادي والاجتماعي .

لقد نشأت الشيوعية فى صميم وجودنا الغربى . وهى حلقة لاحقة لحلقات اقتصادية اجتماعية سابقة ، بل هى مظهر من مظاهر التناقضات التى تعانى منها مجتمعاتنا الغربية .

وإذا كان هناك صراع بيننا وبين موسكو فهو صراع سياسى . أو هو تنافس على مد النفوذ العـــالمى والسيطرة على بقية القارات فى العالم .

وكل منا يحاول أن يبرر نشاطه وأطماعه وأن يعطى حملاته التوسعية شرعية معينة . فوسكو تختبىء وراء ما تسميه بالحريات الجماعية . ونحن نقف وراء ما نسميه بالحريات الفردية ولكن فكرة توسيع النفوذ والسلطان والتسابق إلى الاستيلاء على مصادر القوة هى القاسم المشترك الحقيقى بين المعسكرين المتناقضين ..

ويتابع المحاضر قائلا : أما الخطر الحقيقى الذى يواجه الحضارة الغربية ، باعتبارها عنوانا على القيادة فى مستواها العالمى فهو ليس فى الشيوعية كما أنه ليس فى الشرق الأقصى ولكنه فى الوجود العربى كله وحسب

ثم يقول : وقد تتساءلون أيها السادة عن مبررات هـذا الشعور بالخطر العربى .

إن هناك عاملين يحتمان علينا الشعور بهذا الخطر أولهما أن العرب يتمتعون بتراث حضارى جدير بأن يواجه مسئوليات القيادة ، لاسيما

وأنه قد سبقت لهم فى هذا المضمار تجربة ناجحة مثلت دورها القيادى . وما تزال عناصر هذه التجربة قائمة حتى اليوم . وإن كانت كامنة وراء سلسلة من القيود تعجز فى نهاية الشوط عن خنقها وتفتيتها إلى الأبد . وثانيهما أن فى باطن الأرض العربية وعلى ظهرها ثروات خيالية جديرة أن تزود أصحابها بالقوة المادية المطلوبة والمناعة الدفاعية المنشودة .

وإذا كان هناك ما ينقص العرب فهو وعيهم التكنيكى وتدربهم على أساليب الإنتاج الحديث » .

وينتقل المحاضر بعد ذلك يقول : « إن أمامنا نحن الفرنسيين ، تجربة ضخمة . تجربة تكشف عن جوهر الشخصية العميقة التى يتمتع بها العربى بفضل تراثه التاريخى .

أمامنا الجزائر أيها السادة ، لقد حاولت فرنسا خلال مائة واثنتين وعشرين عاما أن تفتت الشخصية العربية الإسلامية للشعب الجزائرى لقد قاومت هذا الشعب فى تراثه وتاريخه ورزقه وعلمه وعقيدته الروحية ولغته ، وأنفقت المليارات من الفرنكات للقضاء على أصالته القومية . وها نحن أولاء اليوم عام ١٩٥٢ نجد أنفسنا أمام مقاومة عنيدة لا تقل قوة عن تلك التى واجهناها عام ١٨٣٠ يوم نزلت جيوشنا على الساحل الجزائرى .

وهناك احتمالات شديدة لظهور حلقة جديدة من سلسلة الانتفاضات القومية فى أرض الجزائر ، ولعل فرنسا ستجد نفسها أضعف كثيراً من أن تخفق هذه الانتفاضة المقبلة » .

وأخيراً ينهى المحاضر حديثه فيقول ما معناه : « المهم أن نعى هذا الخطر الذى يقترب منا بخطوات حثيثة وأن نواجه بالتعبئة اللازمة لمقاومته . وأنا لا أطمع أبداً فى خنق هذه الطاقة الثورية الجديدة عند العرب . ولكن أقصى ما أطمع فيه وأطمح إليه هو أن نوفق إلى تبطئة نموها ووضع العثرات أمامها ؛ لأن المتناقضات الداخلية فى صميم حضارتنا الغربية لا تسمح بتحقيق ما هو أكثر من هذا الطرح المعتدل » .

ويقول أخيرا :

« وفى اليوم الذى يستطيع فيه العرب أن يصلوا ما انقطع من تراثهم القومى العربى الأصيل وأن يستقلوا فى استغلال امكانياتهم الاقتصادية فقد بدأت نهاية الحضارة الغربية » .

وبعد ، فلن أطيل فى تكرار ما عقبت به على تعقيب المحاضر الفرنسى وفى تفصيل وجهة نظرنا نحن العرب بلفسفة الخطر التى يسوغها حس عميق عند النخبة القائدة من أبناء البلاد الغربية .

ولكننى ألفت النظر إلى أن ملحمة القومية العربية التى بدأت سطورها تظهر فى صفحاتنا التاريخية الحديثة ، والتى تجسمت فى ثورة القاهرة البيضاء فى الثالث والعشرين من تموز عام ١٩٥٢ ، أقول : إن هذه الملحمة التى يتزعم الرئيس جمال عبد الناصر مقدراتها لم تكن قد ظهرت بعد آنذاك .

لقد استمعت إلى هذا المحاضر فى الخامس عشر من تموز عام ١٩٥٢

أى قبل حدوث هذا الانقلاب التاريخى بثمانية أيام وحسب .

ولعل فيما حدث منذ ذلك اليوم حتى الآن ما يكشف عن قيمة المبررات التى عين بها هذا المحاضر الفرنسى مصدر اخطر الحضارى الذى كان يتحدث عنه .

ومهما يكن حظ هذه الآراء من الصحة ، وهى فى نظرى تحتمل كثيراً من أوجه الصواب ، فإن هناك حقيقة كبرى هى أن القومية العربية كطاقة ثورية فى مستواها التاريخى الشامل والعميق قد دخلت فى التاريخ مرة أخرى . . . أى أنها لم تعد شيئاً بالقوة كما يقول الفلاسفة بل هى شىء بالفعل .

إنها تتحرك فى أعصابنا وتتغذى بأحلامنا وآمالنا وتستهدف تثوير كل قاعدة من قواعد حياتنا فى السياسة والاقتصاد والاجتماع والفكر ؛ ومن ثم فى إيماننا بقدرتنا الواثقة على الكفاح .

وهى اليوم سلسلة من التجارب . وفى هـــذه التجارب حظوظ من الصواب والخطأ . ومن الطبيعى أن يكون الخطأ إلى جانب الصواب فإذا لم يكن الأمر كذلك فقد بطل أن تكون للتجارب أصالتها وخلقها واستقلالها .

المهم أن تكون النكسة محرضاً على المزيد من الكفاح والاستمرار فى العمل .

والمهم أن يكون الخطأ مناسبة لإعادة النظر فى أساليب هذا الكفاح ومناهجه .

المهم أخيراً أن يكون الشمول هو الصفة الملازمة لهذه الظاهرة الثورية العربية .

إن ثورية القومية العربية هي في تصحيح مفهومنا للتاريخ : وفي تعبئة قوانا العقلية ، والمادية . وفي إيماننا أخيراً بقدرتنا على مواجهة كل المفاجآت واحتمالات الخطر التي يمكن أن تحل بها هذه المفاجآت المنتظرة .

المعاني الجديدة في الثورة العربية

في ضوء هذه التفسيرات كلها يشوقني أن أستعرض المعاني الثورية التي تصور بها الثورة نفسها في القاهرة ، والتي تتردد على ألسنة قادتها ولا سيما لسان الرئيس جمال عبد الناصر .

هذه المعاني هي :

الاشتراكية التعاونية ثم التقدمية فالديمقراطية .

في هذه الكلمات القليلة ما يوهم بأنها تكرار للمعاني التي وردت على ألسنة رجال الغرب أو ظهرت على أسلة أقلامهم في الصحف أو في المطولات التي يكتبون .

ولكن الحقيقة هي غير هذه .

فالاشتراكية ليست تصويراً لمعنى معين مشترك . والتقدمية ليست

تلك الصيغة التى وضعها غيرنا لمعنى التقدم والتطور . والديمقراطية ليست فى قانون تمثيل معين وضعته تجربة معينة لشعب من الشعوب الأجنبية .

الحقيقة أن هذه الألفاظ تشير إلى شوق إنسانى وإلى مطامح نفسية معينة . وأغراض اجتماعية واقتصادية يقصد بها كلها أن يمارس الإنسان العربى حقه فى إخراج طاقاته الكامنة إلى حيز العمل . وفى تجسيم أخلاقه على صورة تتسم بالحركة والنشاط والايجابية .

فالاشتراكية إذن هى تعبئة القوى الجماعية فى مصلحة كل المواطنين والتقدمية استمرار فى مواجهة المجهول واقتحام لآفاقه . والديمقراطية تنظيم خاص للطريقة التى تتحقق بها أغراض التحديات التقدمية وتعبئة القوى الجماعية لأفراد الشعب كله .

وإذن فالمعانى التى وضعت للقومية العربية الثورية هى تحقيق إنسانية الإنسان فى نطاقه المجتمعى وعلى ضوء الشوق إلى الفوز بالمكاسب والمنجزات التى تضاعف من قدرة الشعب على الكفاح .

والمهم أخيراً هو أن ندرك بأن منجزات القومية العربية التى هى تعبير ثورى عن إرادة الأمة ، ليست منجزات صالحة للعرب فقط ، وهى لا تنأمع فى حدود معينة ولا لمصلحة أفراد معينين . بل هى جملة من النماذج تصلح لمواجهة مشكلة الإنسان ، أى إنسان ، فى أى أرض وتحت كل سماء .

بهذا المفهوم تبدو الطبيعة الفيادية فى القومية العربية وتتحرك . وليست الوحدة التى نحلم بها جميعاً غير نقطة الانطلاق التى نواجه بها العالم كله . ونقدم عن طريقها إليه منهجيتنا الجديدة فى العمل . وثوريتنا المتفائلة فى خدمة مشكلاته التى أغرقها التشاؤم الحديث ، تشاؤم التناقضات المتصارعة فى صميم الحضارة الغربية الحديثة .

فإذا لم يكن تفكيرنا فى هذا المستوى . وإذا لم تكن أطماحنا على هذه الشاكلة ؛ فأنا واثق بأن كل نشاطاتنا ستسقط دون أغراضها التى أريدت من أجلها والتى لم تكن هذه النشاطات إلا لمصلحتها فقط .

إن على القومية العربية أن تواجه نفسها كما تواجه العالم على أنها رسالة تاريخ ، على أنها محاولة لتكريس إنسانية الإنسان، على أنها عنوان لتيار حضارى جديد يحل محل الحضارة الغربية المفلسة والتى تقدم إلينا فى كل يوم مائة دلالة ودلالة على أنها تقترب من نهايتها المنتظرة ..

ثانيا

أحداث لبنان
والتيارات السياسية فيه

بقلم

عدنان الحكيم

رئيس حزب النجادة اللبناني ونائب بيروت

مشكلة لبنان الكبرى

إذا كان التضخم فى النقد ظاهرة مرضية ، تحدو أصحاب العلاقة ، على العمل للخلاص منه ، وعلى المحافظة على القوة الشرائية لوحدة النقد المعينة فمن الطبيعى جدا ، أن يكون التضخم فى الأفكار والتيارات السياسية ظاهرة مرضية أخرى ، لا تقل خطراً عن ظاهرة التضخم النقدى .

ولو رغبت فى أن ألخص لكم مشكلة لبنان الكبرى ، لما وجدت خيراً من عبارة واحدة ، أشخص بها واقع لبنان الأساسى ، هذه العبارة هى : مشكلة التضخم السياسى .

فما هو التضخم فى السياسة اللبنانية ؟ وما هى مصادره الداخلية والخارجية ؟

التضخم فى حقيقته ، ثمرة توالد غير عادى ، لوحدات كثيرة جداً ، كل منها فاقدة لمقومات النضج المطلوب ، والفعالية الضرورية وكلما زاد توالد الوحدات ، قلت فعالية كل منها ، وزادت حاجتها إلى النضج والعمق . وبعبارة أخرى ، فقدت جانباً من أصالتها ، وأبعادها الاساسية .

وكما أن الزيادة فى التضخم النقدى ، تنتهى بصورة حتمية إلى إعلان

إفلاس هذا النقد بالذات ، وتفرض على المعنيين بشئون الاقتصاد الوطنى ، المبادرة إلى وضع نقد جديد على أسس جديدة ، وإعادة النظر فى تكوين الوحدة النقدية ، فإن الزيادة فى التضخم السياسى ، تنتهى حتما إلى إعلان إفلاس السياسات القائمة وتفرض على النخبة القائدة من المثقفين والمعنيين بشئون التوجيه السياسى والوطنى ، المبادرة إلى نفى هذه المركبات السياسية الغريبة ، وإلى وضع قواعد جديدة ، للعمل السياسى الوطنى .

لا شك أن هذا تصوير تقريبى لحقيقة الوضع السياسى فى لبنان ، ولست أقصد به الحصر والاحاطة والشمول .

حقائق عن لبنان

لبنان بلد صغير ، لايكاد عدد سكانه ، يتجاوز عدد سكان نصف مدينة القاهرة أما مساحته فهى عشرة آلاف كيلو مربع أى ما يساوى جزءا واحدا على خمسين جزء من مساحة القطر المصرى كله .

ولكن لبنان مع ذلك ، موطن للنشاط شديد ، نشاط يتصل بالسياسة والفن والفكر ، كما يتصل بفنون متنوعه من التيارات العربية والدولية فيه من المتناقضات ، والغزارة فى الاتجاهات والأهواء مايثير دهشة المراقب ، ويغرى على تتبع هذه الاهواء وتلك الاتجاهات .

هذه الظاهرة ليست حديثة العهد . فقد عرفنا بوادرها منذ زمن طويل وليس غريباً أن تكون هذه الظاهرة علامة خاصة للحياة اللبنانية

الفكرية السياسية ، فلبنان على قلة عدد سكانه وصغر مساحة أرضه ، يشتمل على عدد كبير نسبياً ، من الجامعات والمعاهد العليا ، وعلى عدد أكبر كثيراً من المدارس الثانوية والابتدائية .

وبذلك كانت الأمية فى لبنان ، أقل منها فى البلدان العربية المجاورة.

وكانت مأساة الحاجة إلى التعلم أقل حدة فيه منها فى البلدان العربية المجاورة . . .

وقد يعتقد البعض أن فى القضاء على الأمية بهذا الوجه ، خطوة إيجابية نحو الاستقرار الفكرى والروحى والوطنى ؟ وكثيراً ما تردد هذا الاعتقاد ، فى كتابات البعض أو فى محاضراتهم . . . بل كثيراً ما تحول بعد ذلك ، إلى فن من أدب التمجيد حتى بلغ عند بعضهم مرحلة الإيمان . بوجود إشعاع لبنانى أو حضارة لبنانية .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد . لقد لاحظنا أن محالات كثيرة قد ظهرت لصوغ هذه الشخصية اللبنانية صياغة فلسفية خاصة ، ومنحها أصالة قومية معينة . وفى ضوء هذه المحاولات . ظهر التيار القائل بوجود قومية لبنانية ، ذات شخصية أصيلة مستقلة استقلالا تاما ، عن القومية العربية المجاورة للبنان .

على أن هذا التيار ، القائل بوجود قومية لبنانية ، لا يستقل وحده باهتمام اللبنانيين ولا يستغطب وحده همهم ونشاطاتهم . لقد ظهرت إلى جانبه تيارات كثيرة جدا ، حاول كل منها أن يعطى لبنان ، صبغة معينة وشخصية معينة . وبينها من التناقض والتضارب مايصعب معه تحقيق الحصر والتعداد .

المهم أن مشكلة القراءة والكتابة فى لبنان ، لم تعد مشكلة مستعصية كما هو شأنها فى الأقطار العربية المجاورة .

ولكن القراءة والكتابة شىء ، والنضج الثقافى شىء آخر إن الغاية الكبرى من إعداد الطبقة المثقفة ، وتنمية التيارات الفكرية والوطنية، هى تحقيق الوحدة الداخلية فى الوطن الواحد .

الوحدة الداخلية فى لبنان

هل وفق لبنان ، إلى تحقيق هذه الوحدة الداخلية عن طريق المؤسسات الثقافية الكبيرة التى ظهرت وتظهر حتى اليوم ، فى داخل الحياة اللبنانية ؟

وما الذى يشهد على تحقيق هذه الوحدة ؟

هناك طريقة واحدة للتعرف إلى جوانب مثل هذا التساؤل ، إنها وضع إحصاء دقيق أو تقريبى ، للتيارات السياسية التى تتحرك بها الجماهير فى لبنان ...

ومن الممكن أن نصنف هذه التيارات على الطريقة التالية :

١) التصنيف الأساسى ، الذى يتصل بجوهر الأزمة اللبنانية .

٢) التصنيف الجانبى ، المتصل بالمحاولات المتعددة ، للخروج من هذه الأزمة ..

نحن لا نأتى بجديد حين نعلن ، أن جو الأزمة فى لبنان هو الانقسام

الطائفي ... ونحن لا نكتشف الذرة حين نعلن ، بأن كل الهزات التي يتعرض لها لبنان أو يواجهها ، متصلة على درجات متفاوتة في العمق بهذا الانقسام الطائفي نفسه ...

كل شيء في لبنان ، يتحقق ويجري ويعمل ويتطور ، في ضوء هذا الانقسام فهو في الادارة والسياسة والتجارة والفكر والأخلاق العامة

ورغم كل المحاولات التي بذلت لتجاهل هذا الانقسام القائم ، قد باءت بالفشل ، وثبت أنها عاجزة عن التغلب عليه .

هذا الانقسام ، متصل بمركبات نفسية وسياسية، موجودة في طبيعة التكوين اللبناني ...

ولهذا نجد أن الموضوع الطائفي ، هو أشد الموضوعات حساسية في كل حقل من حقول الحياة اللبنانية العامة والخاصة .

وبما أن الطائفية هي أشد الموضوعات ، حساسية واستهواء للجماهير وفعلا في نفوس المواطنين، فمن الطبيعي جداً أن تكون التيارات السياسية الغالبة، ذات الفعاليات الجماهيرية هي السمة البارزة في حياة لبنان السياسية.

المعركة الانتخابية القوية ، التي يكتب لأصحابها النجاح ، هي التي تتم في ضوء هذا الواقع الطائفي . وتوزيع المقدرات الادارية وما وراءها من مقدرات اقتصادية وفكرية ، ثم المضي في ضوء هذا الواقع الطائفي.

وأقوى السياسيين العاملين في لبنان هم الذين يتقمرن أمام الجماهير مدافعين عن كيان طائفتهم وحقوق هذه الطائفة التي يمثلون ، في مختلف ميادين الحياة العامة .

وبما أن الشعب اللبناني ، قد صنفت مقداراته في ضوء هذا المفهوم

فمن الطبيعي أن يتألف من قوتين أساسيتين ، أو أن يخضع لتيارين رئيسيين ، هما التيار الإسلامي والتيار المسيحي .. لكل منهما أغراضه السياسية المعينة التي تتبلور في اتجاهين حزبيين ، سأعود إليهما بعد قليل.

وبما أن العصبية الطائفية لم تقف عند هذا الحد أي حد الاختلاف الديني بل تجاوزته إلى الاختلاف المذهبي في الدين الواحد ، فقد انقسم كل من هذين التيارين الأساسيين إلى تيارات فرعية في مجموعتين كبيرتين ، كل منهما تنطوي في أحد هذين التيارين وتنتسب إليه .

وبذلك انكشف التيار الاسلامي ، عن ثلاثة تيارات فرعية ، كل منها يمثل وحدة سياسية اجتماعية اقتصادية إدارية ، مستقلة عن الوحدتين الاخريين ..

التيار السني والتيار الشيعي ثم التيار الدرزي . وقد جرى العرف باطلاق عبارة « الطوائف المحمدية » على هذه التيارات الثلاثة .:

أما التيار المسيحي ، فقد انكشف عن عدد أكثر من التيارات الفرعية ، ففيه انطوت الأرثوذكسية ، والكاثوليكية ، والبروتستانتية والمارونية ، والأقليات المذهبية الأخرى بالإضافة إلى العناصر الأرمنية بمذاهبها المتعددة، وقد جرى العرف باطلاق عبارة « الطوائف المسيحية » على هذه الفرق الدينية .

كل شيء في لبنان ، ينظم ويوزع ويقرر ، في ضوء هذه الكيانات الطائفية المذهبية ... وكل من هذه الكيانات يظهر ، وكأنه وحدة سياسية اجتماعية اقتصادية ، مستقلة عن الوحدات الأخرى .

الأوضاع
والأعراف الدستورية فى لبنان

هذا التصنيف الذى أشرت إليه ، هو تصنيف سياسى انتخابى ؛ نصت عليه القوانين المرعية الإجراء ، وجرى به العمل منذ كان لبنان بلدا ذا وجود قانونى معين أما إذا تجاوزنا المستوى السياسى الانتخابى إلى مستوى التشريع فى الأحوال الشخصية مثلا ، فهو لا يمثل الواقع أبدا ، لأن هناك طوائف دينية أخرى تستقل بتشريعاتها فى أحوالها الشخصية ، وإن كانت لا تستقل فى شخصيتها السياسية الانتخابية من مثل اللاتين أو الروم الكاثوليك أو السريان الكاثوليك وغيرها من الكيانات الطائفية الأخرى .

هذه هى حقيقة الأمر الواقع فى لبنان ، وهى حقيقة لا يسعنا أن نتجاهلها أو أن نتجاهل خطرها السياسى وأهميتها ، فى تنظيم القوى اللبنانية الداخلية . . وهى ثمرة لظروف تاريخية معينة مصطنعة . أوجدها الاستعمار الفرنسى لغرض تفتيت القوى الوطنية فى لبنان كما أنه يتحمل مسئوليتها إلى حد بعيد والعلاقة بين هذه القوى المتعددة فقد نظمت فى ضوء أعراف سياسية معينة . لا ينص عليها الدستور . ولكن قوتها هى قوة الدستور بل لعلها أقوى كثيرا ، من نصوص الدستور نفسه . . .

هذه الاعراف تقول بوجوب أن يكون رئيس الجمهورية اللبنانية مسيحيا مارونيا . وأن يكون رئيس الوزراء مسلما سنيا ، وأن يكون نائب رئيس الوزراء مسيحيا أرثوذكسيا ، وأن يكون عدد الوزراء المسلمين مساويا لعدد الوزراء المسيحيين ، بما فيهم رئيس الوزراء ونائبه .

كما تقول هذه الأعراف بوجوب أن يكون رئيس المجلس النيابى مسلما شيعيا ونائبه مسيحيا أرثوذكسيا ، أما عدد النواب فى المجلس النيابى فيجب أن يكون ٥ مسلمين مقابل ٦ مسيحيين بحيث نجد اليوم أن عدد النواب فى المجلس النيابى الحالى تسعة وتسعين نائبا منهم أربعة وخمسون مسيحيون وخمسة وأربعون مسلمون أى تسعة نواب مسيحيين زيادة عن النواب المسلمين وذلك بشكل اعتباطى دون أن يكون هناك أى تبرير احصائى لهذه النسبة العددية فى التمثيل النيابى القائم فى لبنان .

وتندرج بعد ذلك . قضية توزيع المناصب فى الأجهزة الادارية وغير الادارية ، فى ضوء ـ القوى التى تمثلها وترمز إليها المسئوليات السياسية التمثيلية أو التنفيذية ، فى التصـــنيع الذى قررته تلك الاعراف الداخيلة .

الكتائب والنجادة

أو الطائفتين المسيحية والاسلامية

وجوهر الصراع السياسى الداخلى فى لبنان يدور كله حول التأكد من أن التقسيمات الادارية وغيرها تتم فعلا فى ضوء هذه الاعراف أو لا تتم . .

وقد اقتضت ظروف الحياة اللبنانية الداخلية هذه ، أن تتبلور حقيقة الصراع فيها فى شخصيتين حزبيتين أساسيتين هما ، الشخصية الكتائبية وهى تمثل فى نظر الرأى العام أو الامر الواقع أقوى التيارات المسيحيه ، بصرف النظر عن وجود بعض الهيئات المسيحية من مثل الكتلة الدستورية وحزب الوطنيين الأحرار . ثم الكتلة الوطنية أو عدد من السياسيين المستقلين .

ثم شخصية النجادة التى تمثل فى نظر الأمر الواقع أيضا أقوى التيارات الاسلامية بصرف النظر عن وجود حزب الهيئات الوطنية وعدد من السياسيين المستقلين .

أما حزب الكتائب فقد تأسس عام ١٩٣٦ وبقول بقومية لبنانية انعزالية يحاول بها أن ينفى الشخصية العربية عن لبنان وأن يكرس

الذيول السياسية ، المترتبة على مثل هذه المحاولة ، من مثل الاستكثار من المتجنسين بالجنسية اللبنانية ، من العناصر المعادية للقومية العربية ومن مثل مقاومة كل دعوة مشروعة لإجراء إحصاء عام للشعب اللبناني وهو الإحصاء الذي لم يجر منذ ثلاثين عاما لتتعين بعده النسبة العددية لكل من أبناء الطائفتين الكبيرتين المسيحية والإسلامية ، وبالإضافة إلى إصرار هذا الحزب على دمج المغتربين بالمقيمين هؤلاء المغتربون المنتشرون في أطراف الدنيا وانقطعوا عن لبنان بحكم هجرتهم والحاملون لجنسيات أجنبية وبذلك تكرس شرعية مبدأ ازدواج الجنسية مما لا يتفق مع شرعيته الولاء للوطن الواحد كل ذلك لأغراض طائفية محضة وفي ضوء هذه المواقف ينظر حزب الكتائب إلى العالم العربي نظرته إلى العالم الغربي . أو هكذا يردد الناطقون باسمه ، ولكن الحقيقة أن سياسته هي سياسة خوف من التيارات العربية ، واستجداء لصداقة الغرب ، وقد ظهر ذلك في سلسلة المواقف والنشرات التي سجلها المسئولون عن الكتائب منذ تأسيسها أي منذ عام ١٩٣٦ .

وليس طابع لبنان المميز الذي تنادي به الكتائب ، غير تكريس للون الطائفي . الذي تجري كل المحاولات لطبع لبنان به .

أما حزب النجادة فقد تأسس عام ١٩٢٦ أيضا أي في نفس العام الذي تأسس فيه حزب الكتائب ، فهو يمثل القوة المقابلة لحزب الكتائب وهو يرى الانفتاح على العالم العربي ضرورة أساسية ، لأن مصير لبنان مصير عربي ، وواقعه واقع عربي محض وبالتالي يبدو حزب النجادة ،

الحزب الذى ينادى بالقومية العربية ، فى الوقت الذى يعمل فيه على تصحيح الأوضاع الداخلية ، لجهة تقوية العناصر القائلة ، بالقومية العربية المتحررة ، وحزب النجادة هو الذى نادى وينادى ، بضرورة إجراء إحصاء عام - تتعين به وتطهر، حقيقة القوى السياسية الداخلية ، كما يرفض ازدواجية التجنس التى يعتبرها محاولة غير شرعية ، لخلق إرادة لبنان العربية الحقيقية كما يريد أن يكون لبنان لجميع أبنائه على السواء دون تمييز ولا يقبل بطابع لبنان المميز .

وأهمية كل من هاتين الشخصيتين الحزبيتين ، متصلة بأهمية القوتين اللتين ترمزان اليها ، وتعملان فى ضوء مصالحها .

على أن هـــذا لايعنى أن التمثيل السياسى فى لبنان محصور لهاتين الشخصيتين الحزبيتين فقط . ولكنه يعنى أنهما الشخصيتان اللتان ترمزان إلى وجود التصنيف الطائفى السياسى المعين . وقوة كل منهما متصلة بقوة الطائفة التى ترمز اليها وأن الفرق بين النجادة والكتائب من حيث النفوذ السياسى ، هو الفرق بين الطائفة الإسلامية عامة والطائفة المسيحية عامة أيضا . . .

وإذن فهناك تمثيل سياسى مستقل ... وعدد النواب المستقلين ، هو أكبر كثيرا من عدد النواب الحزبيين . ولكن استقلال النائب المسيحى أو المسلم ، مقيد بالطائفة التى ينتمى اليها ، ومصيره مرتبط بارادتها ، ومدى وعيها لقضاياها الخاصة ، فهو إذن لايستطيع أن يعمل ويتحرك ويفكر ويقترح ، إلا فى حدود هذا الوعى وتلك الارادة . . .

هذا هو التصنيف السياسى الذى يتصل بجوهر الأزمة السياسية المستمرة فى لبنان .

أحزاب .. المثقفين

ولكننى لا أنسى تصنيفا آخر هو فى الحقيقة أقل شأنا من التصنيف الأول ، ولكنه يحاول أن ينتزع الأنصار من كلتا الطائفتين الأساسيتين وأن يمثل دوره فى توجيه المقدرات العامة .

ورغم الجهود التى يبذلها هذا الفريق من المواطنين ، فإنه ما يزال حتى اليوم عاجزا عن تمثيل دور أساسى ، فى حياة لبنان السياسية .

هذا الفريق هو فريق المثقفين ، الذين تخرجهم الجامعات والمعاهد العليا الموجودة فى لبنان ، والذين يعودون إلى لبنان ، بعد دراستهم فى المعاهد والجامعات الأجنبية الغرض الأساسى عند هذا الفريق من المثقفين ، هو أن يفتح طريقاً جديدة لنفسه . . . طريقاً يستهدف بها التغلب على القوى الأساسية فى لبنان وذلك بفرض شعارات والترويج لمناهج سياسية واجتماعية واقتصادية ، تحرره من ضغط الظروف الداخلية فى لبنان .

وينقسم هذا الفريق من المثقفين ، إلى كتل حزبية متعددة وأفكاره تنبع كلها من الرغبة ، فى تجاوز الأمر الواقع . . . وقد تبلورت هذه الكتل الحزبية فى الهيئات والأحزاب التالية :

(١) الحزب التقدمى الاشتراكى

(٢) البعث العربى الاشتراكى

(٣) حركة القوميين العرب

(٤) الحزب السورى القومى

(٥) الحزب الشيوعى .

وحظوظ هذه الأحزاب والهيئات من النجاح السياسى التمثيلى حظوظ متفاوته فى القوة ... وبينها قاسم مشترك هو الترويج لشعار العلمانية ، والتأكيد على أنها أحزاب غير طائفية والإصرار على تجاهل الواقع الطائفى فى لبنان .

والظاهرة التى تلفت النظر فى هذه الأحزاب والهيئات ، هى أن كل واحد منها يتصل مصيره ، بهدى تجاوبه مع القوة الداخلية الأساسية أو مع التيارات السياسية الخارجية أما مالا يتصل منها بهذه القوى، فإن دوره فى الحياة السياسية اللبنانية ، دور معزول عن الجماهير أو معزول عن المقدرات التى تتصرف ببعض المصائر اللبنانية .

وهناك قاسم مشترك آخر، هو إجماع أكثر هذه الأحزاب والهيئات على تحدى الأمر الواقع أو على الأقل ، النظاهر بتوجيه التحدى إليه ..

الحزب التقدمى الاشتراكى

فالحزب التقدمى الاشتراكى : الذى يرأسه السيد كمال جنبلاط ، يعتمد فى جوهره على عصبية السيد جنبلاط الطائفية والعصبية الطائفية ، التى تتمثل فى مرشحيه والتى تلعب دوراً كبيرا ، فى تمتين علاقة هؤلاء المرشحين بالحزب التقدمى الاشتراكى أو فى إضعافها .

وقد اجتاز هذا الحزب مراحل كثيرة ، منذ أحد عشر عاما حتى اليوم ، كانت فيها شخصية السيد جنبلاط العائلية ، وجذوره الطائفية ، التى يشاركه فيها بعض من أبناء الدروز فى منطقة الشوف من جبل لبنان ، هى الظاهرة الغالبة والواضحة عبر تلك السنين ، أما فكرة الاشتراكية بالذات ، وفى ضوء الظروف التى مر بها لبنان حتى اليوم فهى بعيدة جداً عن وعى المواطنين العاديين واهتماماتهم الخاصة ، وقد بقيت التقدمية الاشتراكية مجرد محاولة لتجاوز الأوضاع الطائفية ، دون أن تلعب أكثر من الدور الذى يلعبه أى تيار ثقافى ينشأ فى بيئة ضيقة معينة . فإذا جاءت الأزمة الشديدة واحتاج السيد جنبلاط مثلا إلى العون الحقيقى ارتفعت الأغطية وانحسرت القوى ، وبانت المعسكرات الحقيقية العميقة ، فإذا بها بالنسبة للسيد جنبلاط معسكره الانتخابى فى منطقة الشوف وحسب عمل التقريب ، كما هو الأمر الواقع خلال الأحداث السياسية اللبنانية التى جرت حتى اليوم .

البعث العربى الاشتراكى وحركة القوميين العرب

وهناك تيارات البعث العربى الاشتراكى وحركة القوميين العرب

بوما تفرع عنها بسبب انقساماتهما الداخلية فى الأيام الأخيرة ، ولعل فى غير حاجة إلى تحليل هذه التيارات بعد التجارب التى مر بها لبنان حتى اليوم .

وإذا كانت هذه التيارات ، لاتلعب أى دور أساسى فى حياة لبنان السياسية ، فلأن شعاراتها وطريقة مواجهتها ، لقضايا الشعب فى لبنان ، ليست نابعة من هموم هذا الشعب ومشكلاته العميقة ، لقد بقيت هذه الحركات حتى اليوم حركات تتميز بالنشاط والتنظيم ، ولكنها تفتقد النابض الشعبي الأساسى ، الذى يستطيع خلق الانتفاضات الشعبية المطلوبة .

وأنا لا أعنى طبعاً أن شعارات الاشتراكية والتحرر والوحدة التى تنادى بها هذه التيارات هى شعارات خالية من المحتوى القوى ، ولكننى أعنى أن أزمة الشعب فى لبنان تعطى هذه الشعارات معانى وأغراضاً ومناهج محلية وهى نابعة من الصراع الطائفى العميق . الذى هو موضوع لبنان الأول والأخير والذى هو النافذة الوحيدة التى يطل منها المراقب على جوهر القضية اللبنانية الداخلية .

هذه التيارات السياسية التى تمثل بعضاً من التصنيف السياسى الجانبى تنتزع عناصرها وتجد أنصارها فى البيئة الإسلامية على الأكثر . مع اشتراك بعض الأفراد المسيحيين فى قيادة ، هذه التيارات وتنميتها ولذلك فهى فى حقيقتها الواقعة مصدر تفتيت للصفوف الإسلامية

فى لبنان وعبء على كيان الطائفية الإسلامية ، التى صاغتها طبيعة التكوين السياسى اللبنانى .

السوريون القوميون والشيوعيون :

يبقى أن أتحدث قليلا عن فريق آخر من الحزبين ، إنه الفريق الذى يضم الشيوعيين من ناحية ، والسوريين القوميين من ناحية أخرى .

وإذا كنت قد نظرت إلى هؤلاء وأولئك نظرة واحدة ، واعتبرتهم فريقاً واحداً فلأن كلا منهما يستمد قوته من الخارج ، ويعمل فى ضوء غير لبنانى وغير وعربى .

السوريون القوميون ، تصرفوا فى تاريخهم السياسى ، منذ تأسيس حزبهم عام ١٩٣٤ بجهود واضع أسس هذا الحزب أنطون سعادة ، لقد تصرفوا فى كل المراحل تصرف فئات الفاشست والنازيين ، واعتمدت أساليبهم على العنف البالغ ، وتنظيم المؤامرات بمساعدة الاستعمار الغربى فهو تارة ألمانى أو إيطالى فى بداية الحركة . وهو تارة أخرى أمريكى عام ١٩٤٩ ، وهو بعد ذلك انجليزى ، منذ بداية عهد كميل شمعون عام ١٩٥٢

طريقتهم فى الإعداد الحزبى ، تعتمد على الاستهواء ، وتنمية غرائز القسوة والعنف والتخريب ، وغرضهم هو الوصول إلى الحكم بأية وسيلة وعلى أية صورة . وإذا كانوا قد قبلوا فى عهد رئيس الجمهورية اللبنانية السابق كميل شمعون أن يعترفوا بالكيان اللبنانى ، فلكى يتيحوا

الفرصة لكميل شمعون هذا أن يساعدهم ، ويعض الطرف عن نشاطهم ومناوراتهم وأن يحميهم باسم القانون .

وأنا لن أعود بعيداً إلى عام ١٩٤٩. كما لن أحاول إحياء ذكريات العصيان الذى قام به مؤسس الحزب أنطون سعادة فى ذلك الحين والذى انتهى بإعدامه مع فريق من زملائه بل أكتفى بالإشارة إلى الصحف ، التى صدرت على أثر الانقلاب الفاشل الذى حاول السوريون القوميون أن يقوموا به منذ ثلاثة أسابيع على التقريب .

لقد كشفت التحقيقات الأولية عن وجود اتصالات قديمة وحديثة بين زعماء الحزب السورى القومى ، وبين دولة أجنبية استعمارية معينة.

كما عينت المبالغ المالية التى قدمت إلى هذا الحزب ، والتى سجلت رقما قياسياً لا يقل عن ٥٠ مليون ليرة لبنانية ، دفع خلال عامين اثنين فقط ، وأعدت به الخلايا ، ودفعت به المرتبات ، وجمعت به الأسلحة الكثيرة من خفيفة وثقيلة .

وإذا كان السوريون القوميون ،قد استمروا فى نشاطهم حتى اليوم رغم انفضاح علاقاتهم المريبة ، التى تصمهم بالخيانة ، وتجعلهم من المتآمرين على سلامة البلاد،وحريات الشعب العامة ، فذلك لأن الظروف السياسية ، قد أتاحت للاستعمار فرصاً ذهبية ، تدخل خلالها فى الشئون الداخلية ،فاشترى الضمائر،وأصدر الصحف، وأنشأ النوادى والمؤسسات التى تستجلب المتحمسين من الفتيان ، وتستهويهم ، ثم حولهم بعد ذلك للقيام بالعمليات التخريبية المطلوبة .

المهم هو أن هذا الحزب ، هو أحد الحزبين اللذين نشآ وترعرعا وقويت شكيتهما بسبب التدخل الأجنبي الاستعماري . ولبنان اليوم يعيش فترة ترقب ، بعد عمليات الملاحقة الشاملة . التي تقوم بها قوات الأمن فيه، لاعتقال العناصر المشبوهة ،واستئصال الجذور التي لم تستأصل فيما مضى من الأيام .

أترك السوريين القوميين ، لأنتقل إلى الشيوعيين ، وإلى الدور الذي قاموا ويقومون به حتى اليوم .

فما هي قيمة هذه الحركة الحزبية ، ومن أين تستمد قوتها الأساسية وقدرتها على الاستمرار في العمل؟ .

الثابت أن الحزب الشيوعي ، قد بدأ نشاطه السياسي في لبنان ، منذ عام ١٩٢٤ ، وهي البداية الجدية التي حاول بها ، أن ينتزع تأييد الفئة العمالية ، وبعضا من المثقفين وقد كان هؤلاء وأولئك قليلين جداً .

ولكن الحزب الشيوعي رغم استمراره في العمل، وبعد كل المساعدات المادية ، والتنظيمية ، التي قدمت وتقدم إليه من قبل الشيوعية الدولية ما يزال حتى اليوم عاجزاً عن التجاوب مع جماهير الشعب العربي في لبنان ، وعن أن يمثل دور المنافح ، عن قضايا المواطنين الأساسية ، مع العلم أن الشعارات التي يرددها ، والأفكار التي يعلنها ، تتمتع بقوة استهواء وبقدرة على الإغراء والإثارة .

ولكن مشكلة الشيوعية في لبنان . أنها نابعة من تجربة أجنبية ،

وخبرات قد تفيد فى ميدان التنظيم . ولكنها تضر بالغ الضرر بالنسبة إلى النفسية الشعبية العامة . وفى ضوء التقاليد الروحية . التى تفرض نفسها فى لبنان .

وقد جاءت فترة من الفترات ، بدأت بعام ١٩٥٥ ، وانتهت فى عام ١٩٥٩ ، ظن معها البعض أن الشيوعية ، ستصبح طرفاً إيجابياً من تاريخ لبنان السياسى ، وأنها قد بدأت تكسب إلى جانبها ، كتلا ضخمة من الجماهير ..

ولكن تصلب القومية العربية ، الذى بدأ فى مواقف الرئيس جمال عبد الناصر ، والتى أعلن بها مقاومته الصريحة والعنيفة ، لأغراض الشيوعيين ، فى الوطن العربى كله ، وفى الجمهورية العربية المتحدة بصورة خاصة ، قد كان له أعمق الأثر ، فى مصير الشيوعيين فى لبنان ، ولاسيما بعد جرائم السحل البربرى ، التى جرت فى العراق ، بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ ، والتى يتحمل مسئوليتها الشيوعيون أنفسهم ...

وكان عنف الحزب الشيوعى ، فى الرد على تصلب القومية العربية مناسبة فضحت تفاهة التيار الشيوعى ، وضعفه ، فى أوساط الشعب اللبنانى على اختلاف طوائفه .

وانطوت الحركة الشيوعية على نفسها ، بعد عام ١٩٥٩ ، وما تزال حتى اليوم ، أشبه فى فعاليتها ، بفعالية الندوات الثقافية ، التى تتصل بها فئة معينة من الناس ، رغم التأييد الذى تجده عند بعض النقابيين ، ولا سيما عمال المطابع .

المهم هو أن نعرف ، أن دور الشيوعية فى توجيه المقدرات اللبنانية هو دور ثانوى وهو حلقة من سلسلة الحلقات ، التى تتمثل فى التيارات السياسية الجانبية .

وبعد فعلى أن أعود مرة أخرى ، إلى الفكرة التى افتتحت بها هذا الحديث ، أعود إلى فكرة التضخم السياسى الفكرى ، الذى يمثل المشكلة اللبنانية الأولى ..

وليس غريباً أن تظهر هذه الألوان كلها ، فى حياتنا اللبنانية ، لبنان بلد متفتح على كل الاتجاهات ، مفتوحة أبوابه لكل أنواع النشاطات ، التعليمية والصحفية من شرقية وغربية ...

والنشاطات هذه ما تزال حتى اليوم ، تلعب دوراً سطحياً فى صميم الحياة اللبنانية العامة .. إنها نشاطات تتصل بهموم المثقفين وبمشاغلهم التى تصنعها لهم الكتب التى يقرأون ، والمحاضرات التى إليها يستمعون والتجارب الأجنبية التى عنها ينقلون ...

والمأساة الكبرى لهؤلاء المثقفين ، نابعة من حيرتهم التى يولدها شعورهم ، ببطء استجابة الجماهير لهم ، وبعزلتهم التى تكاد تكون تامة عن هذه الجماهير ..

أفكارهم ليست وليدة تجاربهم الشعبية . . وشعاراتهم ليست نابعة من صميم الحياة العامة ..

وبسبب هذه العزلة وتلك الحيرة ، تفرض عليهم الظروف ، أن

يتصرفوا ـ فى بعض الأوقات، أو فى أكثرها، وحين يأتى الوقت المناسب ـ تصرفا انتهازياً، تفسد به المناقبية الحزبية، وتظهر به السياسات السهلة اليسيرة . . ولعل فى تكاثر عدد الصحف والمجلات السياسية والأدبية، ما يسجل رقما قياسياً فى تعدد التيارات المتناقضة، ويؤكد وجود التضخم السياسى الفكرى، حتى أن عدد هذه المنشورات يتجاوز الأربعين .

ولا شك أن الانتهازية والتضخم السياسى الفكرى، وعزلة أكثر المثقفين عن الجماهير الشعبية . هذه كلها هى المعالم الأساسية . للتيارات السياسية الفكرية . التى تصر على عدم الاعتراف بالواقع اللبنانى، وتتجاهل طبيعة مشكلته . .

خطة النجادة فى الإصلاح

وإذا كان هناك من أمل . فى تحقيق الاستقرار النهائى، وفى إيجاد حل جذرى، لمشكلة الصراع الداخلى فى لبنان، فإن هذا الأمل منعقد على وجود خطة عملية، فى مواجهة القضايا اللبنانية الداخلية . . أى مواجهة الواقع كما هو، وتسمية الأشياء بأسمائها ووضع النقاط على الحروف، بوضوح وصراحة وأمانة . .

فالإصلاح يبدأ من هنا . . . والمناقشة تنطلق من هذه المعطيات .

هذه الخطة، هى التى يحاول حزب النجادة . أن يستضىء بها، وأن يعتمد فيها الأرقام والوقائع، ضاربا عرض الحائط بالأفكار المطبوخة سلفا، والشعارات المرسلة جزافا .

هذه الخطة ، هي التي تناقش القضايا السياسية، في ضوء الوقائع الاجتماعية الاقتصادية وعلى هدى من حقوق المواطنين ، في الاستمتاع بمواطنيهم في حدود القانون ، ومنطق الأشياء ، متحررة من الأفكار المسبقة ، ومن فكرة تصنيف الطوائف والتمييز بين المواطنين .

وأن أملنا كبير ، في أن يتزايد عدد المتفهمين لهذه الخطة ، وفي أن تصبح الحلول اللبنانية ، حلولا نابعة من هموم الشعب الداخلية ، ومن إنسانية النظرة إلى حقوقهم وواجباتهم . . .

دور السياسيين المسئولين في تاريخ لبنان

ولكن ما هو الدور الذي لعبه السياسيون المسئولون عن مقدرات لبنان خلال الأربعين عاما الأخيرة التي انفجرت فيها التيارات السياسية الشعوبية ؟

ماذا فعلوا ؟ . . . وما المواقف التي سجلوها أمام هذه الأحداث والمحاولات ؟

والواقع أن هذا السؤال لايحتاج إلى جواب ... فالجواب معروف سلفا . .

وأنتم في مصر تعرفونه لأنكم عانيتم في تاريخكم السياسي وقبل انفجار الثورة البيضاء في بلدكم الطيب هذا ، فتونا من متاعب هذا النوع من السياسيين .

لقد كان هم هؤلاء السياسيين الأول كما تعرفون هو تسخير الدولة

فى خدمة مصالحهم الخاصة واستغلال موارد الشعب لتنمية ثرواتهم .

أما الحاكم المسئول الذى يتصل بمصير الشعب كله وبأقدار الوحدة الوطنية وبرفاهية المواطنين فقد كان غريبا عنهم .

لقد كان وجودهم فى الحكم ثمرة طبيعية لغياب هذا النوع من الوعى السياسى عندهم

لقد هيئت لهم أسباب النيابة ووضعت بين أيديهم تقاليد الوزارة لأنهم نشأوا فى ضوء هذا المفهوم السياسى الرجعى . . . ولأنهم كانوا بطبيعة البيئة التى فيها يعيشون معزولين عن الجماهير وآمالها وأحلامها . القانون عند هؤلاء هو لخدمة مصالحهم هم ...

والدستور عند هؤلاء هو لحماية رأسمالهم والاحتفاظ بامتيازاتهم الاجتماعية . . .

وكلما زاد التفتت فى الصف الشعبى زاد اطمئنانهم إلى مصائرهم الخاصة ..

وبما أن الشعوبية هى عنوان جديد على التعنت يساعدهم على تحقيق التوازن بين مختلف القوى واستنفاذ الطاقة الثورية عند الجماهير فمن الطبيعى أن يقفوا هذا الموقف اللامبالى من الأحزاب والأفكار الشعوبية التى عملت وتعمل على تفتيت قوى الشعب ...

خاتمـــة

هذه لمحات سريعة حاولت بها أن أقدم إليكم صوراً أمينة عن الواقع اللبنانى وهو كما ترون واقع لا يخلو من الشوائب والتعقيدات التى لا يتيح له استمرار بقائها إمكانية الاستقرار وبما أن الأحداث الأخيرة قد فضحت الحزب السورى القومى ومن وراءه من العملاء والطائفيين المنحرفين وطهرت البلاد من أساليبهم التخريبية وبما أن العمل السياسى النظيف لا يستهدف غير خدمة البلاد فى ضوء الضمير الحى والأغراض الوطنية التوحيدية فإننى لا أجد بدا من أن أعلن فى هذه المناسبة رغبة النجادة الصادقة فى أن تمديدها إلى جميع الفرقاء المخلصين مهما تباينت وجهات النظر بينها وبينهم وذلك لأننا نؤمن بأن حسن النية هو الدليل الأمين وهو النور الذى نهتدى به فى الظلمات فإذا حسنت نية هؤلاء الفرقاء وأرجو أن تكون نياتهم نيات حسنة فليس أسهل علينا جميعا نحن وهم من أن نبنى لبنان مرة أخرى سليما قوى الأركان ثابتا كالطود . واحدا ، لاخلاف فيه ولا تفتت ولا انقسام . أقول هذا القول رغم كل ما عددته لكم من أسماء الأحزاب والهيئات ، أقوله لأننى معتقد بأن إرادة الجماهير اللبنانية الحقيقية هى تحقيق وحدة الصف والتحرر نهائيا من الناخبين فى النار والهامسين فى الأذان البريئة والدساسين .

الجماهير اللبنانية تتألف في الواقع من أمثالي أنا ممن يريدون الاستقرار في حياتهم العائلية والعامة وينشدون الاطمئنان إلى مستقبلهم . كلهم ينتمون إلى عائلات وأسر ، ولكل منهم زوجة وأم وبنون وبنات يريد حمايتهم والاحتفاظ بسلامتهم ورعايتهم ، فهل يمكن تحقيق هذا كله إلا بالسلم وإلا بالمودة وإلا بالرغبة المخلصة في تحقيق الاستقرار الذي هو أمل اللبنانيين المنشود ، وخصوصا بعد الهزات المزعجة التي أدخلت اليتم إلى كثير من بيوتنا واليأس إلى الكثير من قلوبنا الفتية .

أنا أعلم بأن كل كلمة أكتبها هنا ، سيكون لها صداها عند المواطنين في لبنان ، وإذا كان لي رجاء فهو أن يوفق هؤلاء المواطنون إلى التغلب على المصاعب الواقعية التي ذكرتها في أول هذا الحديث ليثبتوا أنهم جديرون بالعمل في خدمة هذا البلد الطيب الجميل ، والذي بلغ من جمال الحياة فيه أنه أغرى العرب جميعا في مواطنهم المختلفة على النزوح إليه وقضاء فترات استجمام في ربوعه بحثا عن الهدوء والسكينة والجمال أيضا .

« تم بعون الله »

هيئة قناة السويس

تعلن هيئة قناة السويس عن طرح عملية تقوية تكسيات جوانب القناة داخل دائرة قسم أشغال الاسماعيلية بين الكيلومتر ٤٧ والكيلومتر ٩٨ فى مناقصة عامة تحدد لفتح مظاريفها جلسة ظهر يوم السبت الموافق ٣ فبراير ١٩٦٢

ويمكن الحصول على مستندات العملية من مكتب المناقصات والعقود بإدارة الأشغال بالاسماعيلية نظير دفع مبلغ خمسة جنيهات مصرية ويضاف إليه مبلغ خمسمائة مليم فى حالة طلب إرسال المستندات بالبريد وتقدم العطاءات داخل مظروفين يختم الداخلى منها بالشمع الأحمر ويعنون المظروف الخارجى باسم السيد / رئيس هيئة قناة السويس (إدارة الأشغال) بالاسماعيلية ويرفق بالعطاء تأمين مؤقت قدره ٢ ٪ من قيمة العملية. كما يجب على مقاولى القطاع الخاص تقديم إقرار بعدم التعاقد حاليا مع القطاع العام على أعمال تزيد قيمتها بالاضافة إلى قيمة هذه العملية عن ٣٠٠٠٠ جنيه ولن يلتفت إلى العطاءات غير المستوفاة التأمين أو الإقرار المطلوب ؟